﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 54 - 56]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

سـبـبُ نـزولِ العذابِ بالأوَّلين تكذيبُهم رُسُلَ الله وطاعتُهم أعداءَ الله

لَمّا وضَّحت الآياتُ السّابقةُ ما نادى به فرعونُ في قومه؛ ليحذِّرهم من اتِّباع موسى والإيمان به، بعد أن رفع اللّهُ تعالى عنهم العذابَ استجابةً لدعائِه؛ إذ ذكَّرهم بعظمته، وهدَّدهم بقدرته على التَّحكُّم في مياه النّيل، ثمَّ حقَّر نبيَّ اللّه، وطالبه أن يأتي بشعار من ذهب دليلًا على أنَّه رسولٌ، أو يصحب معه عددًا من الملائكة؛ ليشهدوا له بذلك أمامَ أعينِ النّاس؛ ناسب أن تُبَيِّن هذه الآياتُ أنَّ قومَه قد استجابوا لسخافاته، وانصاعوا لضلالاته، فعَصَوا موسى نبيَّ اللّه، وأطاعوا فرعونَ عدوَّ اللّه، فغضب اللّهُ تعالى عليهم، وأنزل بهم من العذاب ما صاروا به عِبرةً ومثلًا للكافرين على مرِّ الأيّامِ والسّنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَخَفَّ﴾: (خفف) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ شَيءٌ يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ، يُقالُ: خَفَّ الشَّيءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهوَ خَفِيفٌ وخُفافٌ، ويُقالُ: أخَفَّ الرَّجُلُ؛ إذا خَفَّت حالُهُ[1]، ويقال: خفيف فيمن يطيش، وثقيل فيما فيه، وقار، ويقال: خفيف في الأجسام الَّتي من شأنها أن ترجَّح إلى أسفل، كالأرض والماء، وخِفُّ المتاع: الخفيف، ومنه كلام خفيف على اللِّسان، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾، أي: حملهم أن يخفّوا معه، أو وجدهم خفافًا في أبدانِهم وعزائمِهم، وقيل: معناه: وجدَهم طائشين[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خف).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (خف).

2) ﴿ءَاسَفُونَا﴾: (أسف) أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ عَلى الفَوتِ والتَّلَهُّفِ وما أشْبَهَ ذَلِكَ، يُقالُ: أسِفَ عَلى الشَّيءِ يَأسَفُ أسَفًا مِثلَ تَلَهَّفَ، والأسِفُ الغَضْبانُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: 150]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، معناه: أغضبونا[1].

3) ﴿ٱنتَقَمْنَا﴾: (نقم) أصلٌ يَدُلُّ عَلى إنكارِ شَيءٍ وعَيبِه، ونَقَمْتُ عَليهِ أنقِمُ: أنكَرْتُ عَلَيهِ فِعْلَهُ، والنِّقْمَةُ مِنَ العَذابِ والانتِقام، كَأنَّهُ أنكَرَ عَليه، فَعاقَبَهُ[2]، والمعنى المحوريُّ: ضَمُّ القلب على كراهة بالغة ورَفْضٌ لشيء، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: 8]، وتأتي صيغة الافتعال فيه للأخذ بمقتضى ما في النَّفس من غضب وإنكار، فالانتقامُ يعني: العقوبة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[3].

4) ﴿سَلَفًا﴾: (سلف) أصلٌ يَدُلُّ عَلى تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ، مِن ذَلِكَ السَّلَفُ الَّذِينَ مَضَوا، والقَومُ السُّلّافُ: المُتَقَدِّمونَ، قال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]، أي: يُتَجافى عمّا تقدَّم من ذنبه، وقال أيضًا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾، أي: مُعتَبَرًا متقدِّمًا[4].

5) ﴿وَمَثَلًا﴾: (مثل) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مُناظَرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أي: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعنًى واحِدٍ[5]، ومعناه المحوريُّ: تشخُّصُ الشَّيء قائمًا على هيئةٍ أو صفاتٍ معيَّنة: كالتِّمثال، والنَّصل، وكالشَّيء الشّاخص يستوفي بهذا هيئته الكاملة[6]، ومن معانيه: العِبرة، كما في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾، و﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: صارت له شهرة كشهرة الأمثال السّائرة، وصار مَنْ بعدهم يتمثَّل بهم؛ إذا رأى مثلَ حالهم[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (أسف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نقم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (سلف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مثل).
(7) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 452.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفسقُ وسرعةُ الاستجابة لاستخفاف الظّالمين يغضبُ اللهَ ربَّ العالمين

تُبيِّنُ هذه الآياتُ أنَّ فرعونَ طالَبَ قومَه بسرعةِ الاستجابةِ لِما يأمرُهم به، فأطاعوه لخفَّة عقولِهم وسوءِ تفكيرهم، ولا غرابةَ في ذلك، فقد كانوا قومًا فاسقين، كما تُبَيِّن الآياتُ الكريماتُ أنَّهم أغضبوا اللّهَ تعالى، وأسخطوه عليهم؛ بسبب كثرة أعمالِهم السَّيِّئةِ الَّتي لم يرتدعوا عنها على الرَّغم من كثرة التَّنبيه وتوالى النُّذر، وتوضِّحُ أنَّهم لَمّا آسَفوا اللّهَ سبحانه؛ انتقم منهم بعذابٍ بئيسٍ، فأغرقهم أجمعين، ونجَّى موسى ومَن معه مِنَ المؤمنين، وجعل فرعونَ وقومَه سلفًا وقدوةً لمن يأتي بعدهم من الكفّار، وجعلهم كذلك مثلًا وعبرةً للآخَرين من الأمم، فانظروا يا آلَ مكَّة: أين أنتم من هؤلاء، وكيف تكون عاقبةُ الكُفّار الظّالمين؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في صدر الآية:

طالَبَ فرعونُ قومَه بسرعة الاستجابة؛ ليقطعَ عليهم طريق الإيمان بموسى

الفاء في قولِه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ لِلتَّفريع، أي: فتفرَّع عن نداء فرعون قومه أن أثَّر بتمويهه في نفوس ملئه، فعجَّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيّئين لاتِّباع موسى؛ لمّا رأوا الآيات[2]، وفي التَّعبير بها دلالةٌ على أنَّه طالبهم بسرعة الاستجابة لكلامِه بعد أنِ انتهى منه مباشرة؛ ليقطع عليهم طريقَ الإيمانِ بموسى، لا سيَّما بعد أن رأوا ما جاء به من آياتٍ، وبعد أن رَفع الله تعالى عنهم ما نزل من العذاب استجابةً لدعائه، فالمعنى: وبعد أن قال فرعونُ لقومه ما قال من تطاولٍ على نبيِّ اللّه؛ طلب منهم الخِفَّةَ والسُّرعةَ والمُبادرةَ إلى الاستجابة لما قاله لهم[3].

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 400.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 89.

دلالةُ التَّعبير بفعل الاستخفاف:

استخفافُ فرعونَ لقومِه صادِرٌ عن معرفتِه القويَّةِ بخفَّة عقولهم

عبَّر النَّظمُ بفعل الخفَّة مُقترنًا بالسّين والتّاء في قولِه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ فرعونَ بالغ في مطالبة قومِه بالخفَّة، وألحَّ عليهم للإسراع في فعل ما أمرهم به، خشيةَ أن يؤمنوا بموسى، فأطاعوه في طلبه، واستجابوا لإلحاحِه[1]، أو أنَّه استخفَّ عقولَهم، فأسرعوا إلى التَّصديق بما قاله بعد أن صدَّقوا موسى في نفوسهم؛ لمّا رَأوا آياته نزولًا ورفعًا[2]، وقيل: معناه استخفَّ أحلامَهم، أي: وجدهم خفيفةً أحلامُهم، أي: قليلةً عقولُهم، فصيغة الاستفعال للوِجْدان كالأفعال، يُقال: أحمدتُه بمعنى: وجدته محمودًا[3]، ولا مانعَ من أنَّه استخفَّهم لمعرفته القويَّة بخفَّةِ عقولِهم، فحملهم بغروره على ما كانوا مهيَّئين له في خفَّة الحِلم[4]، والخفَّة هنا مستعارةٌ للانتقال من حالة التَّأمُّل في خلع طاعة فرعون والتَّثاقل في اتِّباعه إلى التَّعجيل بالامتثال له، كما يخفُّ الشَّيء بعد التَّثاقل[5].

دلالةُ إضافة القوم إلى ضمير فرعون:

تأكيدُ ما بين فرعونَ وقومِه مِن علاقةِ القيامِ والمُناصرةِ

في إضافة لفظِ القوم إلى ضمير الغائب العائد إلى فرعون في ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ تأكيدٌ لما بينه وبين ملَئِه بصفة خاصَّة، وما بينه وبين قومه بصفة عامَّة من وثيق العلاقة المرتكزة على القيام لمناصرته ومعاونته فيما يذهب إليه، وما يتكلَّم به، والَّتي تبرُزُ هنا في سرعة إجابتهم لما استخفَّهم إليه.

وجهُ العطف بالفاء في: ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾:

القومُ متهيِّئون لطاعةِ فرعون راغبون فيها عازمون عليها

جاءت جملة: ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾ معطوفةً بالفاء الَّتي تُفيد التَّعقيب على قوله: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم فعلوا ما استخفَّهم إليه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 638.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 91.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 450.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.

على وجهٍ بالغٍ من الإسراع، فلم يتفكَّروا في أمر موسى، ولم يتأمَّلوا استجابةَ اللّه تعالى دعاءَه برفع العذاب عنهم، ما يعني: أنَّهم كانوا مُتَهَيّئين لطاعة فرعون، راغبين فيها، عازمين عليها[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل الطّاعة ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير الجماعة:

استجابةُ القوم للاستخفاف كانت طواعيةً بلا تردُّد ولا تأخُّر

عبَّر النَّظمُ عن استجابة القوم لاستخفافِ فرعون بفعل الطّاعة في قوله: ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ الموضوع للانقياد والمُضِيِّ إلى ما أمرهم به[2]؛ للدَّلالة على فِعْلِهم ذلك طواعيةً وبلا تردُّد أو إكراه، وجيء به ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّهم أطاعوه في الحال من غير تباطؤٍ ولا تأخُّر، وفي إسناده إلى ضمير الجماعة إشارةٌ إلى أنَّهم استجابوا جميعًا لاستخفافِه، ولم يتخلَّف أحدٌ منهم عن طاعتِه.

سرُّ فصلِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ عمّا قبلها:

الإصـــــرارُ عـلى الـفـسـق والعصيان سببٌ في الـصَّـدِّ عـن الحقِّ والإعراض عنه

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجُملةُ الثّانية عن سؤال أثارَتْه الجملةُ الأولى في نفس القارئ عن سبب استجابة قوم فرعونَ لاستخفافِه، والسِّرِّ في طاعتهم له وعزوفِهم عن طاعة نبيِّ اللّه ورفض الإيمان به[3]، فتأتي الجملةُ الثّانية لتُبَيِّن أنَّ سببَ ذلك هو تغلغلُ الفسق في كينونتهم، ولتُفصَلَ عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

وجهُ تصدير الجملة بالحرف (إنَّ):

رجوعُ القوم إلى طـاعـة فـرعـون بأدنى سبب

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ مُصَدَّرةً بـ (إنَّ)، وهي تفيد التَّعليل هنا، كما هو الشَّأن؛ إذا جاءت في غير مقام التَّأكيد، فإنَّ كونَهم فاسقين أمرٌ بيِّنٌ ضرورةً؛ لأنَّ موسى جاءهم، فدعاهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.

إلى ترْكِ ما كانوا عليه من عبادة الأصنام، فلا يقتضي المقامُ تأكيدَ كونهم فاسقين، أي: كافرين، والمعنى: أنَّهم إنَّما خفّوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر؛ إذ كانوا يؤلِّهون فرعون، فلمّا حصل لهم تردُّدٌ في شأنه ببعثة موسى عليه السلام؛ لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكينونة:

تَغلغُلُ الكفرِ والشَّرِّ في نفوس القومِ حتى غَدَوا لا يستطيعون الخلاصَ منه

عبَّر النَّظم بالفعل: ﴿كَانُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الشَّرَّ والنِّفاقَ قد تغلغل في نفوسهم، حتى صار في جبلّاتهم، وأنَّهم أُشربوا الكفرَ في كينونتهم، حتّى غدوا لا يستطيعون الخلاصَ منه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفسق مادَّة وصيغة:

قومُ فرعونَ كانوا عريقين في الخروجِ عن طاعة اللهِ إلى معصيته

المرادُ بالفسق هنا: الكفر، كما قال الله تعالى في شأنهم: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]، أوثر التَّعبيرُ به دون (كافرين) لشموله الكفرَ وغيره ممّا يُغضِب اللهَ تعالى، ويوجِب عذابَه، وعبَّر به اسمًا مفيدًا للثُّبوت والدَّوام؛ للدَّلالة على أنَّهم كانوا "عريقين في الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، حتَّى صار لهم ذلك خُلقًا ثابتًا"[3]، لا ينفكُّ عنهم.

نكتةُ عطف: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ بالفاء:

التَّعقيب بذكر المقصود من سرد قصَّة فرعون مع نبيِّ الله موسى

جاء قولُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ معطوفًا على ما قبله بالفاء الَّتي تفيد التَّسبُّب والتَّعقيب؛ لأنَّه محلُّ العِبرة من القصَّة، ومِن ثمَّ فُرِّعَ عليها تفريعَ النَّتيجة على المقدِّمات، فإنَّه بعد أن ذكر كُفْرَ فرعون وملَئِه وتكذيبَهم موسى، ونكْثَهم الوعدَ معه بالاهتداء؛ إذا كشف اللهُ عنهم العذاب؛ عقَّب ما مضى من القصَّة بالمقصود الَّذي يترقَّبه السّامع، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.

ما ترتَّب من الانتقام فالإغراقِ، فجَعْلِهم سلفًا ومثلًا للآخرين، ولأنَّ ذلك محلُّ العِبرة؛ كان الموقعُ في عطفه لفاء التَّرتيب والتَّسبُّب[1].

دلالةُ التَّعبير بـ (لَمّا):

التَّشويقُ إلى معرفةِ العقاب الَّذي ترتَّب على صنيع القومِ مع نبيِّ الله

(لَمّا) في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ هي الحينيَّةُ المُتَضَمِّنةُ معنى الشَّرط، والَّتي تربط بين جملتين، تترتَّب الثّانيةُ منهما على الأولى ترتُّب المُسبَّب على السَّبب، وفي التَّعبير بها نوعٌ من إثارة المتلقّين وتشويقهم إلى معرفة العقاب الَّذي ترتَّب على صنيع فرعون وقومِه مع نبيِّ اللّه موسى عليه السلام، حتّى إذا ورد؛ ثبت في نفوس مشركي مكَّة، واستقرَّ في عقولِهم أنَّ مَن يَحذو حذوَ فرعونَ وقومِه مع رسول اللّه سينتقم اللّه تعالى منهم، كما انتقم مِن أسلافهم.

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿ءَاسَفُونَا﴾:

اللّه تعالى عامل فرعونَ وقومَه، كما يُعامل السَّيِّدُ المأسوفُ عبدًا أسِفَه

الأسَفُ هو: الغَضَبُ المشوبُ بحزنٍ وكَدَرٍ، وأُطلق على صنيع فرعون وقومه فعل ﴿ءَاسَفُونَا﴾؛ لأنَّه فعلٌ يترتَّب عليه انتقامُ اللّه منهم انتقامًا يشبه انتقامَ الآسِف؛ لأنَّهم عصَوا رسوله، وأصرّوا على الكفر بعد ظهور الآيات الدّالَّة على صِدقه، فاستُعير ﴿ءَاسَفُونَا﴾ لمعنى: عَصَوْنا للمشابهة، والمعنى: فلمّا عَصَوْنا عصيان العبد ربَّه المُنْعِمَ عليه بكفران النِّعمة، واللّه يستحيل عليه أن يتَّصف بالآسف، كما يستحيل عليه أن يتَّصف بالغضب على الحقيقة، فيؤول المعنى إلى أنَّ اللّهَ عاملهم، كما يُعامل السَّيِّدُ المأسوفُ عبدًا أسِفَهُ، فلم يترك لرحمة سيِّده مسلكًا[2].

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الأسف ماضيًا وتعليقه بضمير العظمة:

ما يُغضبُ الرَّسولَ، ويحزنُه يغضِبُ اللّهَ تعالى ويوجِبُ عذابَه

جيء بفعل الأسف: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ماضيًا؛ ليدلَّ على إيغالهم فيما يُغضِبُ، وتماديهم فيما يُؤْسِف، والمعنى: فعلوا ما يغضبُ إغضابًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 74 (بتصرف) و: 25/ 234.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234.

شديدًا، بإغضاب أوليائنا لنكثهم مرَّة بعد مرَّةٍ، وكرَّةً في إثر كرَّة[1]، وفي تعليقه بضمير الله تعالى بصيغة التَّعظيم تقبيحٌ لصنيعهم وتشنيعٌ بفعلهم، ودلالةٌ على أنَّ ما يُغضبُ الرَّسول، ويحزنُه، يغضِبُ اللّهَ تعالى، ويوجِبُ عذابه.

بلاغةُ الإيجاز في: ﴿ءَاسَفُونَا﴾:

في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ إيجازٌ؛ لأنَّ كونَهم مؤسفين لم يتقدَّم له ذِكْرٌ، حتّى يُبْنَى أنَّه كان سببًا للانتقام منهم، فدلَّ إناطةُ أداة التَّوقيت به على أنَّه قد حصل، والتَّقدير: فآسفونا، فلمّا آسفونا؛ انتقمنا منهم[2]، وفي هذا الحذف دلالةٌ على أنَّ فعلَ فرعون وقومِه ما يؤسِفُ أمرٌ مسلَّمٌ به؛ لاعتيادهم ذلك المرَّة بعد المرَّة.

فِـعْـلُ فـرعـون وقومه ما يؤسِفُ أمـرٌ مسلَّـمٌ به لاعتيادهم ذلك المرَّة بعد المرَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الانتقام ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير العظمة:

جيء بفعل الانتقامِ المترتِّب على فعل الأسف ماضيًا في جملة جواب الشَّرط، فقيل: ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ للإشارة إلى تحقُّق حصول الانتقام على وجهٍ بالغ في الإسراع، بحيث لم يتمكَّنوا من دفعه أو الفرار منه، والمعنى: أنَّهم أفرطوا في المعاصي، وعَدَوا طورَهم، فاستوجبوا أن نُعَجِّل لهم عذابَنا وانتقامَنا، وألّا نحلُمَ عنهم[3]، وأُسند الفعل إلى ضمير الله تعالى بصيغة التَّعظيم للتَّفخيم والتَّهويل، والمعنى: أوقعنا بهم على وجه المكافأة؛ لِما فعلوا برسولنا ﷺ عقوبةً عظيمةً منكرةً مكروهةً[4].

أوقعَ اللهُ تعالى بفرعونَ وقومِه عقوبةً عظيمةً مُنْكَرةً مكروهةً

معنى الإغراق ووجه عطفه على الانتقام:

الإغراقُ هو: الإلقاء في الماء المُستَبحِر الَّذي يغمُر المُلقَى، فلا يترك له تنفُّسًا[5]، وعُطِفَ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ على فعل الانتقام بالفاء، مع

ذِكْـرُ الإغـراقِ أقـوى تـأثـيرًا في نفوس المشركين المُعـانـديـن من عدم ذِكْرِه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 259.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 75.

أنَّ إغراقَهم هو عين الانتقام منهم، إمّا لأنَّ ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾ مؤوَّل بقدَّرنا الانتقام، فيكون عطف ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ بالفاء كالعطف في قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، وإمّا أن تُجعل الفاء لتأكيد تسبُّب ﴿ءَاسَفُونَا﴾ في الإغراق، وأصل التَّركيب: انتقمنا منهم، فأغرقناهم، على أنَّ جملة: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ مبيِّنة لجملة: ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾، فجاءت الفاء لتأكيد معنى التَّبيين، وإمّا أن تُجعل الفاء عاطفةً ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾ على ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وتكون: ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾ معترضة بين الجملة المفرَّعة والمفرَّعة عنها[1]، ولا شكَّ أنَّ ذِكر الإغراق - أيًّا كان تأويله - فيه إيضاح وبيان لكيفيَّة الانتقام، وهو أقوى تأثيرًا في نفوس المشركين المعاندين من أن يُقال: (فانتقمنا منهم أجمعين).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإغراق ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير العظمة:

جيء بفعل الإغراق ماضيًا؛ للدَّلالة على حصوله على وجه من الإسراع يزيلُ أيَّ شكٍّ في وقوعه، وينفي أيَّ ريبٍ في حصوله، وأوثر إسناده إلى ضمير الحقِّ تعالى بصيغة التَّعظيم لتفخيم الإغراق وتهويله؛ لِما للتَّهويل من تأثيرٍ بالغٍ في العقول المُنكرة، وتخويفٍ شديدٍ للقلوبِ الجاحدةِ المستكبِرة.

حصولُ الإغراق على وجه من الإسراع يزيلُ الشَّكَّ وينفي الرَّيب

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

قوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ توكيدٌ للضَّمير المنصوب في ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، جيء به لتأكيد إغراقِهم جميعًا بلا استثناء، ما يعني أنَّ الإغراقَ طالَ فرعونَ، وطالَ أيضًا كلَّ مَنِ استخفَّهم، فأطاعوه من الملأ ومن العامَّة على السّواء، والمعنى: "أهلكناهم إهلاكَ نفس واحدة، لم يفلت منهم أحد على كثرتهم وقوَّتهم وشدَّتهم، وهذا لا يكون في العادة إلّا بعد علاجٍ كثيرٍ أو اعتناءٍ كبيرٍ"[2].

الإغـراقُ شَمِلَ فرعونَ وكُلَّ مَنِ استخفَّهم مِن الملأ ومِن القوم على السَّواء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234، و235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452.

دلالةُ الفاء في: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾:

أفعالُ فرعون وقومِه سببٌ في أن يتَّعظَ بهم غيرُهم

الفاءُ في جملة: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ هي فاءُ التَّفريع، الدّالَّةُ على أنَّ جعْلَهم سلفًا ومثلًا للآخرين ترتَّب على إهلاكهم؛ بسبب إيغالهم في معصية الله تعالى، وإبلاغهم في إيسافِ نبيِّه موسى، حتّى لا يحذوَ أحدٌ من المتأخِّرين حذوَهم، أو يسيرَ على منوالهم، والمعنى: "لمّا كان إهلاكُهم بسبب إغضابهم لله وبالكِبر على رسله، كانوا سببًا لأن يتَّعظ بحالهم من يأتي بعدهم"[1].

نكتةُ إسنادِ فعل الجعل إلى ضمير العظمة:

جعْلُ فرعونَ وقومِه أو غيرِهم سلفًا ومثلًا للآخرين أمرٌ سهلٌ على الله

أوثر إسنادُ فعل الجعل إلى ضمير الحقِّ بصيغة التَّعظيم في قوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾؛ لتفخيم الفعل وتعظيمه، وللإشارة إلى سهولته على الله ﷻ، وقدرته على أن يُنزل بغيرهم مثلَ ما أنزل بهم، ويجعلهم سلفًا ومثلًا كما جعلهم.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿سَلَفًا﴾ والغرض من تنكيره:

جعلُ اللهِ فرعونَ وقومَه سلفًا للآخرين لاختلافِهم عن غيرهم من الكافرين

السَّلَفُ جمع سالف، والسّالِفُ: الَّذي يسبق غيرَه في الوجود أو في عمل أو مكان، ولمّا ذُكِر الانتقامُ؛ كان المرادُ بالسَّلف هنا: السّالفُ في الانتقام، أي: إنَّ مَن بعدهم سيلقون مثلَ ما لَقوا[2]، وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنَّ الواجبَ على النّاس بعامَّة، وعلى كفّار مكَّة ومَن حولَها بخاصَّة، أن يتأمَّلوا ما حدث لهم، وأن يحذروا الاقتداءَ بهم، حتّى لا يلقَوا مصيرَهم، فالمعنى: "﴿سَلَفًا﴾ متقدِّمًا لكلِّ مَن يهلك بعدهم إهلاكَ غضب، في الهلاك في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، وقدوةً لمن يريد العلوَّ في الأرض، فتكون عاقبتُه في الهلاك عاقبَتَهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: 41]"[3]، وأوثر التَّعبير به نكرة؛ لما يفيده التَّنكيرُ من التَّعظيم الدّالِّ على أنَّهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 235.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452.

كانوا مختلفين عن غيرهم في القوَّة والإمكانيات، وفي الإصرارِ على الكفر، ونكثِ العهد، وإيسافِ نبيِّ الله، ومع ذلك لم يستعصوا على الله سبحانه.

معنى المثَل ونكتة عطفه على السَّلَف:

جـمـعَ الـلـهُ لفرعونَ وقومِه بـين الـعـقـاب الحسّيِّ والعقاب المعنويِّ

المَثَل: النَّظير والمشابه، أُطلق على لازمه على سبيل الكناية، أي: جعلناهم عِبرةً للآخرين يعلمون أنَّهم إن عملوا مثلَ عملهم؛ أصابهم مثلُ ما أصابهم، ويجوز أن يُراد بالمَثَل هنا: الحديث العجيب الشَّأن الَّذي يسير بين النّاس سير الأمثال، والمعنى: جعلناهم للآخرين حديثًا يتحدَّثون به، ويعظُهم به مُحَدِّثُهم[1]، وجيء به معطوفًا على ﴿سَلَفًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الله تعالى شهَّر بهم؛ إذ هيَّأ الأسبابَ لذيوع خبر إغراقهم وانتشاره في العالمين، ما يعني: أنَّه تعالى جمع لهم بين عقابين مُخيفين ورادعين لمَن يأتي بعدهم، **أحدُهما:** العقاب الحسّيُّ المتمثِّل في الانتقام بالإغراق، **والآخر:** العقاب المعنويُّ بجعلهم حديثًا يتناقله النّاسُ للعِبرة والعظة.

نوعُ اللّام في: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾:

جـعـل الـلـه في قـصـص الأمـم عِـــبرة وعـظـة للمتَّعظين

اللّامُ في قوله: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ هي لامُ الاختصاص الدّالَّةُ على أنَّ الغرض من جعل فرعون وقومه سلفًا ومثلًا هو أن يتَّعظ بهم غيرهم، وأن يستفيدوا ممّا حصل لهم، فيتجنَّبوا ما كان سببًا في انتقام الله منهم، لا سيَّما الإصرار على الكفر، ونكث العهد، وإيساف نبيِّ الله ومشاقَّته، وهو عين ما يقوم به كفّارُ مكَّة مع رسول الله محمَّد ﷺ.

نوع (ال) في: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ ودلالتها:

(الـ) في ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ هي لامُ الجنس الدّالَّةُ على أنَّ الله تعالى جعل فرعونَ وقومَه سلفًا ومثلًا لكُلِّ النّاس "الَّذين خلفوا بعدَهم من زمنهم إلى آخر الدَّهر، فيكون حالُهم عظةً لناسٍ وإضلالًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 235.

لآخرين، فمن قُضيَ أن يكون على مثلِ حالهم عملَ مثلَ أعمالِهم، ومن أراد النَّجاةَ ممّا نالهم؛ تجنَّبَ أفعالَهم"[1]، ويدخل كفّارُ مكَّةَ المكذِّبون لرسول الله دخولًا أوَّليًّا في لفظ (الآخِرينَ)؛ لأنَّ هؤلاء - أي: كفّار مكَّة - هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرَّسول، والمعنى: فجعلناهم سلفًا لكم، ومثلًا لكم، فاتَّعِظوا بذلك[2].

تحذيرُ كفّار مكَّة وغيرهم من أن يحذو حذوَ فرعون وقومه

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفسق والعصيان:

الفِسقُ: الفُجورُ والخروجُ عن الحقِّ، وتَرْكُ امتثالِ أمرِ الله، ورجلٌ فُسَقٌ وفسِّيقٌ: دائمُ الفسق، وفسَقَت الرُّطَبة: خرجت عن قِشرها، والفِسق أعمُّ من الكفر، ويقع على كثير الذَّنْبِ وقليله، لكن تُعورف في الكثير أكثر، وفيمن التزم حكم الشَّرع، ثمَّ أخلَّ بأكثر أحكامه[3]، والعصيان هو: الخروج عن الطّاعة[4]، وأصله: من الصَّلابة وعدم الانثناء أو الانقياد[5]، والعاصي: هو من ارتكب معصية أو عدَّة معاصٍ، وربَّما لم يصل إلى حدِّ الفسق؛ لأنَّه لم يجاهرْ بها، ولم يصرَّ عليها، ولمّا كانت حقيقةُ قوم فرعونَ أنَّهم ألِفوا المعصيةَ، واعتادوا نكْثَ العهدِ وفعل ما يغضب، ويؤسف؛ كان التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَٰسِقِينَ﴾ أنسبَ لحالهم، وأكثر دقَّةً في وصف واقعهم.

الفاسق مَنِ اعتاد الخروج عن الحق، والعاصي مَنِ ارتكب معصية، وربَّما لم يجاهز بها

الأسَف والغضب:

الأسَفُ: الحزنُ والغضبُ معًا، وقد يُقال لكلٍّ واحدٍ منهما على الانفراد، وحقيقته: ثوران دم القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان

الأسفُ حزنٌ وغضبٌ معًا، والغضبُ اشتدادُ السُّخط

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452، و453.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 235، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 638.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 193.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (عصا).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصو).

ذلك على مَن دونه؛ انتشر فصار غضبًا، ومتى كان على مَن فوقه؛ انقبض فصار حزنًا، ولذلك قال ابن عباس عن الحزن والغضب: مخرَجُهُما واحدٌ واللَّفظ مختلف، فمَن نازع مَن يقوى عليه؛ أظهره غيظًا وغضبًا، ومَن نازع مَن لا يقوى عليه؛ أظهره حزنًا وجزعًا[1]، أمّا الغَضَبُ؛ فهو: اشتِدادُ السُّخْطِ، وإذا وصف اللّهُ به؛ فالمراد به الانتقام دون غيره[2]، والغَضَبُ الَّذي توجبُه الحميَّةُ هو: انتِقاض الطَّبع بِحال يظهر في تغيُّر الوَجْه، والغَضَب الَّذِي توجبه الحكمة: جنسٌ من العقوبَة يضادُّ الرِّضا، وهو الَّذِي يوصف اللّه بِهِ[3]، ولمّا كان الحاصلُ لنبيِّ اللّه موسى من فرعون وقومِه هو مزيجٌ من الغضب والحزن بسبب نكثهم العهود، وإصرارهم على الكفر، وادِّعاء فرعون أنَّه أفضلُ وأشرفُ مِن نبيِّ اللّه؛ كان التَّعبيرُ بـ ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أنسبَ؛ لأنَّه يصفُ الواقعَ بدقَّةٍ لا توجد في الغضب.

السَّلف والأسوة:

التَّعبيرُ بالسَّلف يعني أن يتَّعظ بهم الآخرون إلى قيام السّاعة

السَّلَفُ: الَّذينَ مَضَوا، والقَومُ السُّلّافُ: المُتَقَدِّمونَ[4]، والأُسوة والإسوَةُ كالقُدوة والقِدوة، وهي الحالة الَّتي يكون الإنسان عليها في اتِّباع غيره إن حسنًا، وإن قبيحًا، وإن سارًّا، وإن ضارًّا[5]، ولا يُشترط فيه أن يكون متقدِّمًا، ولمّا كان القصدُ من البيان أن يكون فرعونُ وقومُه مثلًا لمَن جاء بعدهم إلى قيام السّاعة؛ ناسب التَّعبيرُ بقوله: ﴿سَلَفًا﴾ الدّالِّ على التَّقدُّم، والَّذي يؤذن لكلِّ مَنْ جاء بعدهم إلى يوم القيامة أن يتَّعظ بما نزل بهم من العذاب والعقاب، بالإضافة إلى التَّشهير والفضيحة، بخلاف لفظ الأسوة الَّذي يُقَلِّل نطاق الاتِّعاظ بهم، ويحول دون فضيحتهم، والتَّشهير بقبائحهم.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أسف).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (غضب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 130.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلف).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (أسا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"